خمس أغانٍ للألم

الصديق المبدع الدكتورسهيل

تحية صافية

لقد كانت دراستك الاخيرة التي تناولت فيها قصيدتي بالنقدالوافي والتحليل المفصل تنبض بالشعر . وقد احببت كثيرا من لفتاتها التحليلية ووقفت عند تعابيرها الموحية . انك تتذوق الكلمة التيتكتبها وهذا هو سر الجمال والحيوية في اسلوبك . وقد لاحظت ان نقدك لم يقف من الاغنيتين موقفا خارجيا وانما امتزج بابياتها والفاظهاامتزاجا عميقا وعاش جوها ، وكان في اصالته من ذلك الصنف العالي الذي نريده للشعر العربي ولا نكاد نجده الا في النادر . انهنقد ملهم يقود الشعر المنقود في دروب جديدة وهذا غاية ما يصل اليه الناقد الموهوب .

اما نبوءتك للاغاني الثلاث التي لم يسبق ان رأيتها فقد اعطتني الاطارالذي كنت احتاج اليه لكتابة الاغنية الخامسة ، وكنت قد انجزت من القصيدة الاغاني الاربع الاولى وبقيت شهرين انتظر اطارا غنائياضع فيه الفكرة المعدة للخامسة . لقد تنبأت ان العطف على الطفل سيتحول الى عشق فتدله ففناء ، واوحى الي هذا بفكرة التأليهوالمعبد البابلي والنذور والتسبيحات وكل ما تجده في الاغنية الخامسة التي انجزت كتابتها منذ ايام وها انا ارسلها اليك تاركة لك الحكمعلى قيمتها الفنية .

لقد لفت نظري ، عبر نقدك ، الى ما لم اكن قد فطنت اليه من انهناك في الاغنية الرابعة « تراجعا عن تحطيم الالم وتبديده وقناعة بمحاولة ارجائه ونسيانه فترة من الزمن ... » . ان مَن الممكنان يعلل هذا بانني لم اقصد ان تكون هذه الاغاني مترابطة كقصيدة ولذلك سميتها « اغاني » ونوعت اوزانها غير ان الامر قد يرجع الىسبب اعمق . ان هذه الاغاني ، في الواقع ، تتناول الالم باعتبارين احدهما يعد الالم اشكالا يجب ان يحل والا امتص حيويتنا وكل ايامنا.وعلى هذا الصعيد جاءت الابيات « يا ليتنا لم نسقه قطرة ـ ذاك الصباح الكئيب » « ولقد حسبنا اننا عدنا بمنجى من أذاه . » « اليسفي امكاننا ان نغلب الالم ؟ » « وسيهبط وادينا النسيان ـ يا أسانا ... مسا ءالخير». فالالم بهذا الاعتبار يكاد يكون « عدوا ـ لدودا »نحاول نسيانه والهرب منه .

واما الاعتبار الاخر فهو الذي يرى قسوة الالم حنانا ، ونقمته رحمةسابغة ويتجه اليه بالحب العميق . وهذا الالم لا يتفجر بكل مجالاته ولا يكتمل حتى تجيء « الوردة الحمراء » التي ترمز الى المشاركةالعاطفية والانسجام الكامل ومن ثم فهي تعطي للالم معناه وتجعله حبيبا الى قلوبنا ـ اعز من اي فرح تأتي به الحياة . هنا يصبح الالم« صديقا ـ محبا » ويعود العذاب نشوة يستسلم لها القلب الانساني بلا تحفظ ، ويعود في امكاننا ان نغسل ارض المعبد بالزيت والخمروالدموع . وفي هذه الحالة يصبح « الايذاء »و « العتاب » و «الغفران» كلمات فارغة يجردها من المعنى هذا التناسق الشعوري العميق الذيهو اجمل ما تقدمه الحياة لانسان وبوجوده تضمحل الشكليات وتتلاشى الحدود . ان اعزازنا لهذا الطفل « المؤذي » يستوعب كل مايأتي منه وهو سر موقفنا « المسامح » ازاءه . وسرعان ما يعود الالم حبا : « انا نحبك يا الم » بعد ان تحرر من عزلته وصافحالدموع المختبئة في الوردة الحمراء .

ن٠ م٠

وبعد فهذه الاغاني الخمس :

ـ ١ ـ

مُهدي ليالينا الاسى والحرَق
ساقي مآقينا كؤوس الارق
نحن وجدناه على دربنا
ذات صباح مطير
ونحن أعطيناه من حبِّنا
ربتة اشفاق وركنا صغير
ينبض في قلبنا
فلم يعد يتركنا او يغيب
عن دربنا مره
يتبعنا ملء الوجود الرحيب
يا ليتنا لم نسقه قطره
ذاك الصباح الكئيب
مهدي ليالينا الاسى والحرق
ساقي مآقينا كؤوس الارق

ـ ٢ ـ

كيف ننسى الالم
كيف ننساه ؟
سوف نشربُه سوف نأكله
وسنقفو شرودَ خطاه٠
واذا غنا كان هيكلُه
الجهمَ آخر شيء نراه
وملامحُه هي اول ما
سوف نبصره في الصباحْ
وسنحمله معنا حيثما
حملتنا المنى والجراحْ
سنبيح له ان يقيم السدود
بين أشواقنا والقمر
بين حرقتنا وغديرٍ بَرود
بين أعيننا والنظر

وسنسمح ان ينثـر البلوى
والاسـى فـي مآقينا
وسنؤويه في ثنية نشوى
من ضلوع أغانينا
واخيرا ستجرفه الوديـان
ويوسده الصُبير
وسيهبط وادينا النسيان
يا أسانا ... مساء الخير
سـوف ننسى الالم
سوف ننساه

— ٣ —

مـن أيـن يأتينـا الالـم ؟
من أيـن يأتينـا ؟
آخى رؤانا مـن قـدم
ورعى قوافينـا
أمس اصطحبناه الى لجـج الميـاه
وهناك كسرناه ، بددناه فـي موج البحيره
لم نبق منه آهة لم نبق عبره
ولقد حسبنا اننا عدنا بمنجى من آذاه
ما عاد يلقي الحزن في بسماتنا
او يخبيء الغصص المريرة خلف اغنياتنا
ثم استلمنا وردة حمراء دأفئة العبير
أحبابنا بعثوا بها عبر البحار
ماذا توقعناه فيها ؟ غبطة ورضى قرير
لكنها انتفضت وسالت ادمعا عطشى حرا ر
وسقت اصابعنا الحزينات النغم
انا نحبـك يا ألم
من اين يأتينـا الالـم ؟
من اين يأتينـا
آخر رؤانا من قدم
ورعى قوافينـا
انا له عطش وفـم
يحيى ويسقينا

— ٤ —

اليس في امكاننا ان نغلب الالـم ؟
نرجئه الى صباح قادم ؟ او امسيه ؟
نشغله ؟ نقنعه بلعبة ؟ او اغنيه ؟
بقصة قديمة منسية النغم ؟
ومن عساه ان يكون ذلك الالم ؟
طفل صغير ناعم مستفهم العيون
تسكته تهويـدة وربتة حنون
وان تبسمنـا وغنينا له ينـم
يا اصبعا اهدى لنـا الدموع والنـدم
من غيره اغلق في وجه أسانا قلبه
ثم أتانا باكيـا يسأل ان نحبـه ؟
ومن سواه وزع الجـراح وابتسـم ؟
هذا الصغير ... انه ابرأ من ظلم
عدونا احب او صديقنـا اللدود
يا طعنـة تريـد ان نمنحها خـدود
دون اختلال عاتب ودونما الم ..
يا طفلنا الصغير سامحنا يـدا وفم
تحفـر في عيوننا معابـرا للادمع
وتستثير جرحنـا في موضع وموضع
انا غفرنـا الذنب والايذاء مـن قدم

— ٥ —

نحن توّجناك في تهويمة الفجر إلها
وعلى مذبحك الفضي مرّغنا الجباها
يا هوانا يا الم
ومن الكتّان والسمسم احرقنا بخورا
ثم قدمنا القرابين ورتلنـا سـطورا
بابليات النغم
نحن شيدنا لك المعبد جدرانا شذيّه
ورششنا ارضه بالزيت والخمر النقيه
والدموع المحرقه
نحن أشعلنا لك النيران من سعف النخيل
واسانا وهشيم القمح فـي ليـل طويـل
بشفاهٍ مطبقه
نحن رتلنا وناديّنا وقدمنا النـذور :
بلح من بابل السكرى وخبز وخمور
وورود فرحه
ثم صلينا لعينيك وقربنا ضحيه
وجمعنا قطرات الادمع الحرى السخيه
وصنعنا مسبحه
أنت يا من كفّه أعطت لحونا وأغاني
يا دموعا تمنح الحكمة ، يا نبع معان
يا ثراء وخصوبه
يا حنانا قاسيا يا نقمة تقطر رحمه
نحن خبأناك في احلامنا ، في كل نغمه
من أغانينا الكئيبه